قراءة متأنية في كتاب السَنَة (١ من ٢)

التنشئة

السيرة التي كتبها باتريك سيل البريطاني عن الرئيس حافظ الاسد اثارت ردود فعل متباينة. فهناك من اتهمه بتبني اراء صاحب السيرة من دون تروٍ ولاانصاف. وهناك من يقول انه اوفى صاحب السيرة حقه. وثمة من لم يعجبه انحياز الكتاب بالنسبة الى قضايا داخلية سورية او بالنسبة الى سياسة دمشق العربية.

الحياة ـ ٨٩/٨/٩

غسان سلامة *

ربما اعتقد البعض ان السيرة ليست المدخل الأفضل لكتابة التاريخ

وأن مسلك القائد لا يشكل الا مدخلاً واحداً وضيقاً لفهم سياسة الدولة

■ السيرة التي كتبها باتريك سيل عن الرئيس السوري حافظ الاسد هي منذ اشهر بين ايدي قرائها ومن يقرأ منهم الانكليزية سيقترب من الاصل. وقد نشرت صحيفة «القبس» ترجمة عربية لها في حلقات، الى ان وضعت بين دفتي كتاب. غير اني لم اطلع عليها لتقويم امانتها للنص الانكليزي الاساس الذي هو مرجعي.

وعلى رغم طول السيرة (٥٢٥ صفحة) وحداثة عهد صدورها (خريف ١٩٨٨) وعدد قراء الانكليزية (وهم ليسوا اكثرية) ومنع الكتاب في بلدان عدة (بينها سورية على ما يبدو)، فان سيرة الاسد بقلم سيل اثارت حتى الساعة ردود فعل كثيرة ومتباينة ويبدو اولاً ان السيد رفعت الاسد، وهو شقيق صاحب السيرة ويأتي ذكره مراراً على صفحاتها، رفع دعوى قضائية على كاتبها بتهمة القدح والذم. ومن الجانب الاسرائيلي صدرت مراجعات عدة للكتاب تندد بصاحب السيرة وبكاتبها، بينها مراجعة خص بها الباحث الاسرائيلي ايتامار رابينوفيتش مجلة «نيو ريبابليك» في نيويورك، اتهمت كاتب السيرة بتبني اراء صاحبها من دون تروٍ ولا إنصاف، بل هي شككت في امانة الكاتب في ما نقله. وكثيراً ما تصادف قراء آخرين فتلحظ ان السيرة ما تركتهم محايدين. بينهم طبعاً من يقول ان كاتب السيرة اوفى صاحبها حقه، وبينهم من رأى انحيازاً لم يعجبه في المسائل الكثيرة التي خاض الكتاب فيها اكان داخل سورية، او في سياسة سورية العربية، وتحديداً ازاء العراق ولبنان والفلسطينيين، او في مسالتي الصراع مع اسرائيل والعلاقة بالولايات المتحدة.

وربما آن الاوان لمحاولة تقديم قراءة متانية لهذا الكتاب بعيداً عن اية فكرة مسبقة، وربما ان الوقت حان لتغليب المنحى الاكاديمي الذي يحاول الالتصاق بالموضوعية قدر الامكان على رغم مما قد تتضمنه تلك المحاولة من ادعاء في العلم لا مفر في النهاية منه. والسبب في ذلك ان موضوع الكتاب يتسم بالاهمية الفائقة. من هو القادر على انكار الدور المهم الذي لعبته سورية في العقدين المنصرمين؟ بل من هو القادر على التشكيك في اهمية شخصية الرئيس السوري نفسه، وهو على رأس السلطة في دمشق منذ عام ١٩٧٠؟ وربما اعتقد البعض ان السيرة ليست المدخل الافضل لكتابة التاريخ وان مسلك القائد لا يشكل الا مدخلاً واحداً وضيقاً لفهم سياسة الدولة. لكن هؤلاء متغافلون عن مركزية العناصر الشخصية في صياغة السياسات في بلدان عربية يغلب عليها جانب السلطة الفردية، من العراق شرقاً الى المغرب غرباً مروراً بسورية.

لكن السيرة هي في النهاية ملك كاتبها، لا ملك الشخص الذي هو موضوعها. وباتريك سيل هو، ولا ريب، من ابرز الصحافيين الغربيين العاملين عن منطقتنا ان لم يكن ابرزهم على الاطلاق. وعلى رغم مقالاته الكثيرة في غير يومية واسبوعية، فباتريك سيل هو، في نظري، اساساً صاحب كتاب بعنوان «الصراع على سورية» الذي ادعو الطلاب في العلوم السياسية لقراءته كشرط مسبق قبل البحث في التاريخ المعاصر للمنطقة. وكانت اعادة نشر هذا الكتاب، الذي يفصل العلاقات العربية ـ العربية بعين نافذة خلال مرحلة ١٩٤٥ – ١٩٥٨، مبادرة ممتازة من جامعة برنستون الاميركية بعدما كان اصبح الحصول على الطبعة الاولى شبه مستحيل.

ومع ان كتاب سيل الجديد يتناول شخصية الرئيس السوري، فهو، في جوهره، تكملة للكتاب الاول. فالكتاب الجديد يبدأ فعلا حيث ينتهي الاول، اي في مطلع الستينات مع فشل الوحدة المصرية – السورية وبالتالي مع تسلم حافظ الاسد مهمات وزارة الدفاع في دمشق. والكتاب الجديد، كسابقه، يعطي اهمية قصوى للعلاقات، التنافسية والتناحرية في مجملها، بين الاطراف العربية. ولكن الكتاب الجديد هو ايضاً نقيض الكتاب الاول. فالاول كان شهادة حية دقيقة على الصراع الدائر بين مصر والعراق والسعودية، ناهيك عن الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي للسيطرة على سورية بينما يهتم الكتاب الثاني باثبات ما يعتبره باتريك سيل انقلاباً جوهرياً في المعادلة.

فسورية مع الاسد لم تعد مجالا لمطامع الاخرين، وهدفاً لمؤامراتهم، بل هي اصبحت طرفاً مستقلاً في اللعبة، قادراً على التنافس مع القاهرة وبغداد وعلى التصدي لتل ابيب وواشنطن وعلى التباعد عن موسكو. تلك هي الاطروحة الاساس في السيرة. ومفادها ان رجلاً استثنائياً استطاع تحقيق انقلاب شامل في موقع سورية الاقليمي، فحولها من ساحة لصراع الآخرين الى ند ومنافس لهم. واذا كان عنوان الكتاب الاول «صراع على سورية» فالعنوان الفرعي لسيرة حافظ الاسد هو «الصراع على الشرق الاوسط». وهو صراع سورية لم تعد فيه جائزة للاعب الاقوى، بل طرفاً قوياً في الحلبة.

ومن الامور المثيرة للانتباه فعلا ان هناك من يشكك في نجاح هذا الانقلاب الدراماتيكي في الموقع الاقليمي لدمشق. وقبل الادلاء برأينا في هذا الموضوع، نشير الى ان المؤرخ البريطاني الكبير البرت حوراني (وسيل يدين له بالكثير) كتب مقدمة الطبعة الجديدة من كتاب سيل الاول الصادرة منذ عامين. فبينما كان سيل منكباً على كتابة سيرة الاسد، كان استاذه حوراني يتساءل عن حدود هذا الانقلاب، اذ كتب «لقد قام في السبعينات نظام سوري قوي استطاع ان يفرض نفسه على الدولة وان يقضي، ولو لفترة، على النزاعات الداخلية. واستطاعت سورية بفضل ذلك الانتقال من الدرك الادنى الى المستوى الوسيط في حياة الشرق الاوسط السياسية وان تصبح للمرة الاولى قوة اقليمية(...) غير انه من المخاطرة التنبؤ بان قوة النظام الظاهرة ستكون حقيقية ودائمة وبان سورية لن تعود يوماً لتكون هدفاً لصراعات الاخرين». بكلام اوضح، بينما يبدو سيل ميالا للقول ان التحسن الدراماتيكي في موقع سورية الاقليمي له صفة الديمومة، يشكك استاذه «واستاذنا» حوراني بذلك، فلا يستبعد امكان اعتبار الفترة الراهنة من تاريخ سورية المعاصر نوعا من الفاصل ذي الطابع الاستثنائي.

لكن الاساس هو السيرة ذاتها. والواقع انني اصدرت منذ عامين كتاباً بعنوان «المجتمع والدولة في المشرق العربي» حاولت فيه اثبات اطروحة مركزية مفادها ان السياسة العربية في المشرق تدور رحاها اليوم في صورة اساسية بين عصبيات ريفية انتقلت حديثا الى المدينة وبين فئات مدينية تحاول منعها من الاستيلاء التام على جهاز الدولة. وقلت ان تلك العصبيات الريفية دخلت المدنية من خلال اجهزة الدولة الحديثة التي امتد تاثيرها الى الارياف غداة الاستقلال، كالمدرسة والحزب والثكنة العسكرية، ناهيك عن النقابات العمالية والفلاحية.

وتاتي السيرة التي كتبها سيل، من دون ادعاء التواضع، لتعطي الامثلة الكثيرة، الواحد تلو الاخر، على صحة هذه الاطروحة. فالرئيس الاسد يعترف لسيل بان «الانتقال الى المدينة من الجبل شكل نقطة التحول الرئيسية في حياته» ولا عجب، فصدمة هذا الانتقال لا يعرفها فعلاً الا من عاشها. ويتجاهل ابناء المدن في الغالب قسوتها وحدتها. ويقول الاسد «لم اكن اعرف في المدينة احداً (...) لذا شعرت بالحنين للقرية. وكنت اشعر ان قريتي تثير في قدراً اكبر من الاطمئنان». وكان حافظ الاسد اول شاب من عائلته ينتقل الى المدينة (اللاذقية) لهدف يعرفه تماماً ابناء منطقتنا: التدرج في التعليم الثانوي.

هكذا تبرز عناصر الشخصية السياسية بالتطور: الجبلي النازل الى المدينة اولاً والمدرسة كوسيلة للصعود الاجتماعي وللكسب الاقتصادي المرتقب ثانياً.

ثم يبرز العنصر الثالث، وهو الحزب، الذي ينخرط فيه الشاب وهو بعد على مقاعد الدراسة. وكان بإمكانه الاختيار بين الشيوعيين والقوميين السوريين والبعثيين، فاختار هؤلاء. وتتالف هذه العناصر (المدينة، المدرسة، الحزب) للدفع باتجاه العمل النقابي. واذا بحافظ الاسد يصبح زعيماً طلابياً على مستوى سورية كلها. بقي العنصر المهني البحت لكي تكتمل وسائل الحداثة الاجتماعية كلها. وهذا العنصر هو المدرسة الحربية التي يذهب اليها حافظ الاسد اثر تفضيل لدراسة الطب في بيروت تمنعه الظروف العائلية من تحقيقه.

السيرة التي كتبها سيل تنساب برقة وبقلم حذق ولبق. لكن عزل العناصر التاسيسية التي ذكرنا مهم للغاية، لان سكان منطقتنا من العالم يعلمون تماماً ان هذه العناصر ليست خاصة برجل، بطائفة او ببلدة انتقال من الريف الى المدينة، دخول المدرسة الثانوية، انخراط في حزب حديث، عمل نقابي يفتح افاق الوطن، وبالتالي دخول في الجيش. خمسة عناصر تحكم صورة الحداثة كما عرفها على الاقل جيل بكامله، الجيل المولود كالرئيس الاسد عام ١٩٣٠ الذي يراوح عمره الان بين الخمسين والستين. تلك الحداثة لا ريب انها اللغة السياسية التي تستهوي بالذات ابناء الاقليات الدينية والمذهبية وبالذات ابناء الطائفة العلوية التي ينتمي اليها الاسد. وهي ايضا لغة تسمح له، في سياق الصعود الاجتماعي لابناء جيله، بمواجهة العقبات الطبيعية على طريق هذا الصعود. وهي عقبات النقيض للنقيض: المدينة للريف والاكثرية الدينية للاقليات والاعمال المدينية (لا سيما التجارة) للوظيفة العسكرية والاعيان التقليديون للاحزاب الحديثة والموقع الاجتماعي الموروث لصعود الفئات الاجتماعية الجديدة الطموحة.

صاحب السيرة هو المثال الساطع على هذا الصراع الاجتماعي المتعدد الاوجه. وهو صراع يفسر نظرته للسلطة السياسية عندما يصل اليها وممارسته لها. وتفسر هذه العناصر تفضيله لزكي الارسوزي (العلوي القادم من لواء الاسكندورن) على عفلق (المديني، المسيحي) كصاحب فكر سياسي وشتائمه الشعرية لدمشق وهو بعد طالب، متهماً عاصمة الامويين «بشرب دماء اولادها» واهتمامه بالفلاحين كقاعدة سياسية اولى، ناهيك عن تلك العلاقة المتوترة بمصر وبعبدالناصر، الضابط القومي العربي والزعيم الكبير، لكنه ايضا الرجل المنتمي في النهاية لتراث سياسي مختلف، على رغم البزة العسكرية الواحدة التي تجمعهما. وتشير السيرة هنا بوضوح ودقة الى اهمية اللجنة العسكرية التي شكلها محمد عمران وصلاح جديد وحافظ الاسد (الثلاثة ضباط وعلويون وبعثيون) في القاهرة، حيث لا بد انهم امضوا الساعات الطويلة في المقارنة بين بساطة اللعبة السياسية المصرية وتعقيدات السياسة في سورية وايضاً عن الوسائل التي يجب ان تعتمد لتجاوز تلك التعقيدات. وهي وسائل سيتضاءل الالهام الناصري تدريجاً في مسار البحث عنها وتحقيقها. ويبرز وجه عبد الناصر فعلا كاطار في مؤخر الصورة، كمثال مضيء يجب الاحتذاء به من جانب وكمثال غريب لا يمكن ولا يجدر استلهامه من جانب اخر. صورة متناقضة، وتناقض القاهرة ودمشق، تناقض السلطة العربية في الستينات والسلطة العربية في السبعينات: فارق في الجيل، يكرسه فارق في الجغرافيا.

غداً: في السلطة

---

* استاذ العلوم السياسية في جامعة باريس الاولى.